

«إسورة العروس»... فيلم لعفيف محمود حيدر يبدأ عرضه في أيار المقبل

حين تزف الأرض عرساتها ينبت العشب وطناً من جمر ونور



عبير حمدان

أن تحاكي الأرض ومن يذود عنها بالنض والروح، ففي ذلك فعل وجود يتخطى الواجب. فكيف إذا ما سعيت إلى ترسيخ الحكاية في إطار فني مدروس وبجهد شخصي من دون أن تتكى على رصيد مالي مفتوح، كما الحال مع طفرة الإنتاج السينمائي المنتشر على قاعدة السطحية والقائمة المشوقة من دون أي اقتراح بالواقع.

«إسورة العروس»، حكاية نسجتها مخيلة الكاتب والمخرج عفيف محمود حيدر وأنتجها أحمد فحص من دون أي خشية من تكرار الفكرة المرتبطة بالوطن، ومن بحميه. اختار حيدر رفع القبة للجيش اللبناني، وهي خطوة تُحسب له كونها الأولى لفيلم سينمائي طويل بعد «أديم»، الفيلم القصير لمزيه عادل سرخان.

هي مغامرة إذ للفناني حيدر وفحص في محاولة لترسيخ الحياة الواقعية على الشاشة الضيقة، لكنهما يصران على المحاورة لقناعتها بأن المتلقي ليس غيباً ويمكنه التمييز بين الفن الجيد والفن الاستهلاكي. وحين تقدم له مادة سينمائية عميقة ومستوحاة من تفاصيل حياته اليومية، سيرمي كل ما سبقها من القصص السطحية والانفعال المصطنع خلفه، ويختار الأفضل والأكثر صدقاً.

يبدأ عرض فيلم «إسورة العروس» في صالات السينما الشهر المقبل، وقبيل إطلاقه كان اللقاء مع كاتب العمل عفيف

محمود حيدر ومخرجه، ومنتهج أحمد فحص للإضاءة على بعض التفاصيل والصعوبات التي واجهتهما قبل التصوير وخلاله.

حيدر: الجيش حالة جامعة

نبدأ مع حيدر، من الاسم الذي اختاره ورمزيته والسبب وراء هذا الاختيار، ليقول: الإسورة ترمز إلى الغالي الذي نملكه ونصّر على حمايته. القصة عبارة عن فتازيا في إحدى القرى الجنوبية تتناول أفة التعامل مع العدو وهي تمس كل فرد منا من دون أي تفرقة في الطرح... إنه الصراع بين طرفي نقض، بين العميل، والوطني الذي يختار الانخراط في صفوف الجيش اللبناني.

«حبيب» و«ربيع» ضدان على الأرض نفسها، يختار الأول الوطن فتقع المواجهة، وحين يخرج «حبيب» من القرية تصبح المواجهة بين «أم حبيب» و«ربيع» الذي وعد عروسه أن يعود ومعها «الإسورة». ويتم قصف الكنتنة العسكرية أثناء غيابه لجلبها فيختار العودة إلى الكنتنة بدل أن يأخذ الهدية الموعودة لعروسه. وهنا تبدأ الحكاية.

أما لماذا الإشارة إلى الجيش تحديداً فيقول حيدر: الجيش حالة جامعة لكل أبناء الوطن، اعتدنا على القصص التي تناوالت المقاومة من جانب واحد، وبناءً على لذلك أردت أن أقدم طرحاً مغايراً للسائد. لم نتحدث في الجانب العسكري

كثيراً في محاولة للخروج من دائرة التكرار. وسترون في العمل إشارات كثيرة إلى شخصيات افتراضية من السهل ربطها بواقعنا اليومي. معظم الأعمال التي تناوالت المقاومة لم يكتبها أبناء هذه البيئة. ويرأي هذا أمر غير منطقي، وقد ينجح لمرة ولكنه لا يصيب مرّات.

لكن هل يرى حيدر أن الأعمال التي تلامس الواقع جدياً تفقد إلى الجمهور، يجيب: للأسف، الجمهور منقسم في ما يتصل بالطرح. ومعظمه يذهب نحو الأعمال السطحية والمبتذلة في مكان ما. والمسؤول عن ذلك شركات الإنتاج التي تتحكم بهذا القطاع، وأحياناً يتدخل المنتج في التفاصيل كافة بما يتلاءم مع منطقتهم التجارية وعلى حساب القصة. ثم أن هناك مسالة الترويج والضجة الإعلامية التي تسبق أي عمل سينمائي وأربابها اتقنوها بشكل فاعل، لتأتي مهجرة للمتلقى فيظن أن ما سيشاهده سيكون عظيماً، بينما هو واقعاً بلا مضمون. لكن رغم ذلك هناك جمهور نخوي قادر على التمييز ولو بنسبة قليلة.

ويتابع في إطار متصل: هناك كم كبير من الأفلام السينمائية اللبنانية، ولكنها غير قادرة على المنافسة، وغالبيتها ذات حبكة ضعيفة ونصّ ركيك. هناك هوة بين الطرح السينمائي اللبناني وبين المجتمع اللبناني. معظم الكتاب يصرّون على تقديم صورة نمطية غير واقعية ولا تشبهنا، ما يجعلنا نقد المصداقية على المدى الطويل. أننا من المؤمنين بنظرية المؤامرة التي تستهدف ثقافتنا ومجتمعنا منذ زمن، وبكل

تواضع أجزم أن فيلم «إسورة العروس» مرّة لواقعنا بعفويته وثقافته وقد يكون الخطوة الأولى في تقويم الخلل. أما عن إمكانية إنتاج عمل سينمائي بتقنية جيدة وبكلفة معقولة فيؤكد فحص: هناك من يعطيك أرقام خيالية وأنا لا أشك في الأرقام التي يعلن عنها معظم المنتجين، وهي حقيقية. ولكن بكل بساطة أجزم أنه يمكن إنجاز عمل سينمائي كامل متكامل بتقنية جيدة وبكلفة معقولة، شرط أن يكون فريق العمل مبدعاً وخلاقاً، وقد حققنا هذه المعادلة في فيلم «إسورة العروس»، وسترون ذلك جلياً بعد العرض الأول. وأقول ذلك بكل تواضع.

فحص: محاكاة الواقع

لا يعتبر أحمد فحص منتج العمل أن ما يقوم به مخاطرة. ويتفق بأن الطرح يلامس الناس. وعن تجربته الإنتاجية الأولى يقول: ما سقدهم يختلف عن كل ما هو سائد سينمائياً لأنه يحاكي الواقع ويلامس الناس. ولا أعتبر أنني أقوم بمخاطرة غير محسوبة. بالعكس، نحن فريق عملنا بجهد وجدية بعيداً عن الإحباط المبتذلة. وأتوقع أن نحصد النجاح.

وعن كيفية اتخاذ قرار إنتاج فيلم سينمائي يضيق على تصحيحات الجيش اللبناني يقول فحص: حين تعرّفت إلى الصديق عفيف وعلمت أن لديه سيناريو من كتابته جدير بالإنتاج السينمائي، قررنا سوياً أن نخوض التجربة، وقمنا



بعض التعديلات في النصّ وبداننا العمل. الفيلم عبارة عن تسعين دقيقة نحكي فيها عن تضحيات الجيش في سبيل حماية الوطن.

ويشير فحص إلى أن الفيلم سيكون في صالات السينما في بيروت والجنوب مطلع أيار المقبل. ورغم أن فريق العمل صغير، إلا أن الترويج للعمل مدروس وجيد.

ولا يخفي الفناني حيدر وفحص أن معظم شركات الإنتاج القوية الموجودة على الساحة تراهن على فشلها، لكنهما مصممان على المضي حتى النهاية في خطوتها السينمائية الأولى، ويتفان بقدرتهما على تذليل الصعاب وكسب اهتمام الجمهور.

لا ينبغي فحص أن العقبات كانت موجودة لكنها دُلّت بالتصميم والإرادة. أضف إلى ذلك أن النجومية تكمن في القصة لا في الأسماء المشاركة فيه فحسب. ويبقى في جعبة الفناني الكثير من الأفكار التي تنتظر التنفيذ، ما يضعهما على سكة التحدي لإثبات قدرة الكاميرا على الدوران في فلك النصّ الجيد والواقعي، تحت وطأة ما نشهد من تسطح في درامي وابتذال سينمائي. يذكر أن الفيلم من بطولة وفاء شرارة وحسن فرحات وهادي طراز ومحمد علاء الدين ويأسل شكر، والوجه الجديد اليسار فقيه. وضيف الشرف الفنان القدير حسام صباح، ومع مشاركة خاصة للشاعر أحمد منصور.



حضارة المايا الألفية المكسيكية تتأق في سماء برلين... كيف كانوا قبل «الاكتشاف» وكيف أمسوا بعده؟

الأرياح النائية والنواحي البعيدة التي تطل من بعيد على إحدى أكبر مدن العالم «مكسيكو سيتي» العملاقة، أو على حضارة «تينوشنتلان» بحسب اسمها الأزتيكي القديم، ويخبرنا الكاتب أنه عايش شعوب «المايا» في شبه جزيرة «جوكاتان» المكسيكية حيث ظهت ونشأت وترعرعت وازدهرت حضارتهم، ثم سرعان ما خمدت ونبتت، وأقل نجهما، وهي الحضارة التي تعرض اليوم نماذج من إبداعاتها الفنية في برلين.

الكاتب وضع لهذا المؤلف نسي «ظرفه الإنساني»، ونسي الشهادات الجامعية العليا التي يحملها، وأصبح واحداً من هؤلاء البسطاء، إننا نتلمس من خلال سطور هذه القصص الرغبة الجامحة، والجوع المعرفي للتعلم في حياة شخصيات قصصه، وأبطالها ومعاناتهم التي تختلف عن معاناة الإنسان المتمدن، وبيننا الكاتب عن الشاؤم البعيد الذي أدركه هؤلاء السكان الأقدمون، كما يخبرنا عن معارفهم الواسعة بعلم الفلاحة والزراعة والبستنة والرّي، وعن علوّ كعبهم في علوم الفلك والنجوم والمناخ والرياضيات، وأطلاعهم الكبير على أسرار الطبيعة التي كانوا يعيشون في كنفها، فضلاً عن موروثاتهم وثقافتهم الفطرية، التي ترعرعت فوق هذه الأرض التي أصبحت نحن اليوم نطأ وجهها ونلطف أديمها ونلطف ثراها بلا حجل ولا وجل!

العصافير تحلق على انخفاض

هؤلاء القوم الذين ينم ظهريهم عن خشونة وغلظة وقسوة، يسري في دهمهم، ويجري في أجسادهم إحساس رقيق، وشعور مرفف، وعطف كبير على أهمهم الأولى الطبيعة، التي لا يتوقف الإنسان الأبيض المتمدن اليوم عن تدميرها وإتلافها يقول الكاتب: «إن الواحد منا عندما يندمج في مجتمعهم، ويعترف على عاداتهم، ويكف على حكمهم، ويصغي إلى أمثالهم ويتمتع في حكمهم، يشعر بالحنين من نفسه ومن شهادته الجامعية المرموقة، إذ إن معارفهم عن الطبيعة وتحركاتها وتغيراتها تبعث على الذهول والإعجاب حقاً، إنهم يراقبونها بواسطة الطيور وتصرفاتهم، فكم واحد منهم تراه يقول: اليوم لن يسقط المطر، لأن ترى أن الطيور تحلق على علو شاهق؟ أما اليوم فسوف تهطل السماء مناً ندياً وأمطاراً غزيرة، لأن ترى كيف أن العصافير تحلق على انخفاض دان مسقاً؟».

لمعان النجوم وصمتها

هدوء البادية، وسكون الغاب، بالنسبة إليهم لمسانة في لمعان النجوم وصمتها، وفي هبوب ريح الصبا المنعشة، إلا أن تلك الظواهر والأمارات عندهم لا تعني نفس ما تعنيه عندنا، فطيلة هائلة جدا إنشا هي تعلن، أو تنبئ عن شيء ما، أو عن حدث ما، أو ظاهرة طبيعية ما، عن شمس قاتلة، حارة، أو عن هواء مبلل عليل، أو ربما كانت تعني، أو تنذر ببرد قارس زمهيري، إن الطيور إذا زقرقت، والعصافير إذا غردت بهذا الشكل وليس بغيره، فإنها هي تفعل ذلك نتيجة إرهاب خفي بتغيير في الجبهتين لافى عاداته، ولافى تقاليد، ولافى طريقة تفكيره، بل إنه يتحاشى أن يكون مثله، وهو شديد الاعتزاز والتشبث بماضيه والافتخار والتباهي به.

كيف عاش المايا في ماضيهم البعيد؟

يضمّ هذا الكتاب قصصاً مترابطة ومتشابكة ومتلاحمة ببعضها. إذ تغدو في نهاية المطاف وكأنها رواية متسلسلة الحلقات يحكي لنا قصة هؤلاء السكان الأصليين، وكيف كانوا يعيشون في ماضيهم البعيد، كما أنه يرصد لنا كذلك كيف كانوا يفكرون، ويسجل لنا الكتاب كيف كانوا يتصرفون. إزاء الحضارة الوافدة أو القوى الغازية خلال القرون التي تلت (الاكتشاف - الغزو) وبشكل خاص خلال القرنين التاسع عشر، والعشرين. يحكي لنا الكتاب كيفية اندماجهم، في الحياة العصرية، وما نتج عن ذلك من آلام ومفارقات وتناقضات ومواجهات، مع تسليط الضوء على مختلف أشكال الظلم، والتعنت، والتمييز، والحق، الذي تعرضوا له من جزاء الغزو الأجنبي لبلدانهم وأراضيهم، وحياتهم وعاداتهم وثقافتهم. هذا الكتاب لم يكتب داخل منازل المدن الفارخة، أو على طنافس صالونات البيوتات الفاخرة، حيث جميع وسائل الراحة متوفرة، بل إنه كتب بعيداً عن المدينة، حيث عاش الكاتب بالفعل مع هؤلاء السكان الأصليين، أي أنه عايش أبطاله في قراهم، وفي مدارشهم، وفي غاباتهم، واندغالهم، وتجاههم، وفي

محمود حيدر الخطابي

افتتح يوم الأربعاء 13 نيسان الجاري 2016 في العاصمة الألمانية برلين، معرض كبير تحت عنوان «المايا»، حيث يمكن للزوار الألمان وغير الألمان الذين يتقاطرون عليه زرافات وفرادى، الاطلاع والمشاهدة عن قرب داخل الصالونات النفسية لمتحف «مارتن غروبيوس بو» الذي أقيمت في فضاءاته هذه التظاهرة الكبرى، ما يزيد على 300 قطعة فنية نفيسة تعتبر كنوزاً وطنية، وترافاً للإنسانية جمعاء.

وأشار المسؤولون المكسيكيون المشرفون على إقامة هذا المعرض إلى أن هذه الكنوز الأثرية لم تروح أرض المكسيك قط من قبل، ما يعطي أهمية خاصة لهذا الحدث الثقافي الفريد. ويقدم المعرض التنوع والثراء اللذين يميزان مختلف الفنون التي اشتهرت بها حضارة المايا الألفية المهرقة التي حاول وعمل «المكتشفون» الإسبان عقب وصولهم إليها عام 1492 على طمسها، وإبادة أصحابها من شعوب المايا والأزتيك وسواهما من الحضارات التي تعاقبت على الأصقاع النائية من العالم في ذلك الإبان.

شبه جزيرة «جوكاتان»، المكسيكية أرض قديماء شعوب سكان المايا، مرتع حضارتهم القديمة الذين رفعوا فيها الأهرامات الشامخة، ونصبوا المجمعات العالية، وأقاموا المتاحف الكبرى قريانياً وتزلفاً لأهليهم... ما هم اليوم يقدمون نماذج من هذه الحضارة الضاربة في القدم في قلب العاصمة الألمانية برلين.

وقد أقام المشرفون على هذا التظاهرة الثقافية التي تقام للمرة الأولى خارج المكسيك بهذا الحجم والرخم ستة مواقع أركيولوجية أثرية مفتوحة في وجه الجمهور، وما ينيف على 3000 موقع أثري حقيقي آخر مازال يوارى التراب في العمق المكسيكية الشاسعة مترامية الأطراف.

ويقدم المعرض لزواره عيّات من نماذج ملموسة للمنتوجات، والمصنوعات التقليدية، والمنحوتات الأثرية المكسيكية القديمة من تماثيل بشرية، ومجسمات حيوانية، فضلاً عن أوان خزفية، وفخارية، ومعدنية، ومحوريات، واقنعة، وقلع الزينة، والحلي مصنوعة أو مصنوعة من الذهب والفضة واليشم، وسواها من المعادن النفيسة التي اشتهر بها العالم الجديد.

وبعد تشييد لهذا المعرض قام الرئيس المكسيكي إنريكي بينيا نييتو، الذي حضر إلى ألمانيا خصيصاً لهذه الغاية، قام إلى جانب نظيره الرئيس الألماني يواخيم غاوك بزيارة تفقدية لمختلف أجنحة وأروقة هذا المعرض الكبير.

والقال المسؤولون عن القطاع السياحي في ولاية جوكاتان ساهول مارتن أنتونا: «إننا ورثة ثقافة كبرى منوعة رائعتة ما تزال تنبض بالحياة». وأضاف: «إننا شعب سحري ولدني بلدنا بشاسع لم يكتشف بعد».

اشتهرت شعوب المايا ببنوعها وإتقانها لفنون المعمار، والنحت، حيث برع سكانها في تشييد البنايات الكبرى، ورفع القلاع الحصينة، وإقامة الأهرامات الشامخة، وصنع التماثيل، والرسم على الجدران والأواني على اختلاف معاندها، كما أنهم بلغوا شأواً بعيداً في فنون الفلاحة والبستنة والزراعة والرّي، وعرفوا تطوراً مثلاً في علوم الفلك، والرياضيات وحساب الزمن وعلوم النجوم، إلا أن هذه المعارف على اختلافها وتعددتها كانت غارقة في سدب المعتقدات الدينية والطقوس الغرائبية والتلاسم السحرية، ما كان يدفعهم للقيام بتقديم قربانين بشرية لأهليهم من أطفال ورجال... بشكل دموي عنيف.

قبل «الاكتشاف» وبعده

وتجدر الإشارة في هذه المناسبة إلى كتاب طريف بعنوان «إيزال» للكاتب المكسيكي إغناسيو غوميز بلاسيو، الذي يحاول أن يجيب عن هذا السؤال: كيف كان المايا قبل «الاكتشاف» وكيف أمسوا بعده؟ إذ يدور الكتاب برمته حول شعوب المايا، هذا الكتيب لم تمكن منذ مدة من التوصل أو التخلص منه بسهولة ويسر، إنه يرافقتي حينما أقت أو ارتحتها، لطرافة موضوعاته وعمق مضامينه ومدى جديته وجداً بالنسبة لمن أراد أن يتعرف أو يعرف ماذا جرى لتلك الشعوب المقهوره والمغلوبة على أمرها، وما عانته وقاسته من جزاء ذلك الذي أطلق عليه اعتباطاً وجزافاً بعد 1492 بـ«الاكتشاف»، هذه الشعوب التي لم يال الكاتب جهداً في تتبع، ومعالجة طريقة تفكيرها، وفلسفتها وفهمها للحياة، ونظرتها لها،